رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعرّي: بيئتُها وبِنيتُها

The Message of the Sahih and the Shahej to Abu Al-'Ala Al-Maarri: Its environment and its structure

طالب الدكتوراه/ عبد القادر بليله
الأستاذ الدكتور/ العيد جلولي

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة قاصدي مرباح - ورقلة (الجزائر)
Abdelkader070586@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/02 تاريخ القبول: 2020/12/20 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخّص البحث:

يَسْعى هذا البحثُ إلى تَبصيرِ المُتلقّي للأدبِ العَربي القَديم عُمومًا، وأَدبِ أَبي العلاء المعرّي خُصوصاً، بأنَّ رسالةَ الصَّاهلِ والشَّاحِجِ، مِنَ الأَعْمَالِ الأَدبيَّةِ النَثْرِيةِ البَارزَةِ في العَصْرِ العبّاسِي، مِنَ النَّاحِيتيْنِ المَوْضُوعيةِ والشَّكلِيَّةِ، التّي قَلّما حَظيتْ باهتمامِ النُقّادِ، والدّارسين، رُغْمَ مَا تَحتويهِ من مَواضيعَ وقَضَايا ذَات خُصُوبةٍ بَحْثيَّةٍ، لاشْتِمَالِها علَى مَسائِلَ في فُنونٍ وعُلُومٍ شَتَّى، في الشَّريعةِ والتَّاريخِ والجُغرافيا وعِلْمِ الاجْتِماعِ، وفي الأدَبِ واللّغةِ.

وعَليْهِ سَيقدّمُ هذا البَحْثُ، الإطار العام للرِسالةِ مِنْ خِلالِ التَّطرُّقِ، إلى أَسبابِ تَأليفِها، وزَمَنِ كِتابَتِها، وتَقْديمِ مُلخّصٍ حَوْلَ بِنْيَتِها وأَهمّ المَواضيعِ التّي طَرَقَتْها، كما سيحاولُ البحثُ الإجابَةَ عَنْ سُؤالٍ جَوْهَريٍّ مَفَادُه: لماذَا اسْتَأْثَر المعرّي عالمَ الحيوانِ، ليُفرِغَ مَا في جُعْبَتِه مِنْ لُغَةٍ وإبداعٍ وأفانين الحوارِ، مَع أنّ الرسالةَ يُخاطِب فيها الإنسانَ المُمثل في عزيزِ الدولةِ، ويُورِد فيها أحداثَ تلك الفترةِ؟

الكلمات المفتاحية: رسالةُ الصَّاهِلِ والشَّاحِجِ، أبو العلاء المعرّي، أسبابُ التَّأليفِ، زَمنُ الكِتابَةِ، بِنْيةُ الرِسالةِ.

***Abstract*:**

This research seeks to enlighten the recipient of ancient Arabic literature in general, and the literature of Abu Ala Al-Maari in particular, that the message of Sahil and Shahej is one of the eminent literary works of the Abbasid era from both sides objectively and formally, which rarely received the attention of critics and researchers, despite the topics and issues it contained. Fertile research, because it includes issues in the arts and various sciences, in, history, geography, sociology, literature and language.

Accordingly, this research will present the general framework of the message by addressing the reasons for its composition, the time of its writing, and providing a summary of its structure and the most important topics that it has broached. The research will also try to answer a fundamental question: Why did al-Maari excluded the animal world, to empty the language and creativity out of his pocket. However, are the events of that period included?

Key words: Message al-Sahil and al-Shahej, Abu al-Alaa al-Maari, Reasons for Composition, Time of Writing, Structure of the Message.

مقدمة:

إنَّ اسْتِنطاقَ المَاضي جُزءٌ مِن رِهاناتِ الحاضرِ، ودَرْسٌ بَليغٌ مِن دُرُوسِه، يلُوذُ البَاحِثون المُتصدُّون بعبَرِ المَاضي وحَوادِثِه، إمَّا لتَأكيدِ جِذْرٍ أَو للْبرهَنةِ عَلى سَابقَةٍ، أو للبَحْثِ عَن تَوازُنٍ مفقودٍ، أو للنظَّرِ في داهيةٍ مِن دَواهي الدَّهرِ.

وكائنًا ما كانَ السَّببُ، فمن الواضِحِ أنَّ نَسْغَ الماضِي مَزالَ يَتَصاعدُ في لِحاءِ الحاضرِ، ويُعيدُ نفسَهُ في أحيانٍ كثيرةٍ بصُورةٍ فكريّةٍ دينيّةٍ وسياسيّةٍ ... مُتعددةِ الوُجُوهِ، فَلمْ يَعُد المَاضي زمنا انْقضَى أَوانُهُ، أو نَضبَ البحثُ في ثنايَاه، وإنَّما يبقَى ذخيرةً يستثمرُها الباحثون، للإفادَةِ مِن أحداثِها، والتَّأملِ في عِبرِها المُستخلَصةِ[1].

وتأتي أهميةُ بحثِنا (رسالةُ الصّاهلِ والشّاحجِ لأبي العلاء المعرّي: بيئَتُها وبِنْيتُها) في إطارِ تلْك الفائدَةِ المَرجوَّةِ، مِن خِلالِ التَّأملِ في تُراثِنا القديمِ، واستلهامِ دُروسِه وحِكاياتِه وأحداثِه، ومُفارقاتِه التَاريخيّةِ والاجتماعيَّةِ والسياسيَّةِ.

في بداية القرن الخامس الهجري، ألحَّت أحداثُ حلبَ على حبيس المعرّةِ، أنْ يتجشم عناءَ صياغةِ نصٍّ أدبي، يعكس أحداث تلك الأيام الحرجة من تاريخ حلب، صاغ خلالها المعرّي أحداث نصّه (الصّاهل والشّاحج) على لسان الحيوانات كلٍّ منها أخذ دورًا في الرسالة، وكلُّ حيوان أُريد له أن يحمل همّاً جعله المعرّي مُوَرّى للضرورة الأدبية، والخوف من مجاهل طغاة الحكم والسياسة، وهذا ما أشار إليه مبدعُ النّص[2].

إنَّ المعرّي وضع رسالته في إطارٍ محلي محدد، « وفي زمنٍ دقيق، فوصف على لسان الحيوان الوضع السياسي والاجتماعي في مصرَ والشَّامَ، في العقدِ الأول من القرن الخامس للهجرة »[3]، ولاسيَّما أحداث حلب، إذ نقل تلك الأحداث على لسان الثعلب، الذي كان يمضي متجولاً في حلب وأطرافها، ومن ثَمَّ يَرِدُ على الشّاحج المعصوب العينين بمعرّة النعمان، يخبره بالأحداث السياسية والاجتماعية التي يلتقطها من هنا وهناك[4].

إنّ (رسالة الصّاهل والشّاحج) وثيقة أدبية تاريخية، تصف واقع النزوح والتشريد على حدود مدينة حلب مع الروم، وذلك بين سنتي: 411 هـ و412 هـ، وتُدين واقع الظلم والفوضى،

وسوء إدارة البلاد في تلك الحقبة الغابرة، وكأنها تُدين وتشّخص، حالة الحرب والنزوح للجالية السورية في الوقت الحاضر.

وعليه فإنّ الرسالة نتاج أدبي ذو قيمة كبيرة، تستحق الدرس والعناية، فضلاً عن كونها مصدرا مُهمًّا من مصادر التاريخ العربي في تلك الحقبة من الزمن، تقدم تفسيرًا تاريخياً لأحداث البيئة والعصر، في رؤية بصيرة المعرّي الثاقبة، والرسالة « علامة بارزة في نثر أبي العلاء خاصة، وفي النثر الفني العربي عامةً، تحمل فكرة جديدة وقالبًا جديدًا، وتكشف لنا - في وضوح - عن صلة الأدب الوثيقة بالحياة العامة من حوله »[5].

ولعلّ ما يعنينا -هنا- هو معرفة أسباب تأليف الرسالة، وهذا ما سنوضّحه فيما يلي.

أولاً: أسباب تأليف الرسالة

تعدّدت آراء الدارسين والباحثين في أدب أبي العلاء، حول سبب تأليف الرسالة، كل حسب الزاوية التي يراها مناسبة لصياغة مبرر يكون مقنعا لمتلقي النص. وقد انطلق أغلبهم من أرضيتين أساسيتين في ذلك؛ الأولى تتعلق بالظروف والملابسات الخارجية بعصر الرسالة، والأخرى متعلقة بما جاء بين دفتيْ نص "الصّاهل والشّاحج"، حيث تقول عائشة عبد الرحمان "بنت الشاطئ" في هذا الشأن: « ومما وهم فيه الدارسون بسبب غياب النصوص، مؤرخو أبي العلاء ذكروا له: كتاب الصّاهل والشّاحج، صنفه لعزيز الدولة فاتك الرومي، والعبارة موهمة بحيث يتجه الفهم إلى أنّ ((أبا العلاء)) تطوّع من تلقاء نفسه، بتصنيف كتابه لوالي حلب، على سبيل الإهداء والتكريم، كما يفعل كثيرا من المؤلفين، حين يخرجون كتبهم مهداةً إلى الحُكّام، وكبار الرؤساء والأعيان »[6].

يذهب أصحاب هذا الرأي، كما تقول "بنت الشاطئ": أنّ سبب تأليف الرسالة سبب شخصي، يتمثّلُ في باب الإهداء والتكريم، أيْ أنّ المعرّي قدّم الرسالة كهدية، لعزيز الدولة الفاطمي، لا يرجو منه بذلك جزاءً ولا شكورا، وهذا خلاف ما يراه "طه حسين"، الذي أرجع رسائل أبي العلاء للحكّام، من باب التقرُّب والتقيّة والمداراة، فيقول في كتابه "تجديد ذكرى أبي العلاء المعرّي": « على أنّ أبا العلاء كان يدفع الحكّام عنه بكتب في اللّغة يُعنْوِنها بأسمائهم، فيتخذ له بذلك منهم أصدقاء »[7].

وبالعودة إلى سبب تأليف الرسالة، فقد ذكر أغلب الباحثين أنَّها صُنِّفت اتكاءً على حقٍ وجب للسلطان على بعض أرحام المعرّي، ونظرًا لإلحاح هؤلاء الأقارب على أبي العلاء، « وجب عليه سؤال السلطان فيه، وهو في ذلك يعتمد على ما جاء في الرسالة نفسها »[8]، إذ يذكر المعرّي في رسالته أنَّ له أولاد أخٍ قد تعاونوا في خدمته، وأنَّ لهم قطعة أرضٍ في مدينةِ ((حَمَاةَ))* لا تنبت الزرع، وقد رفع رافع إلى الحضرة العالية، أن حقاً لخزانة الدولة على هذهِ الأرض، وهؤلاء الأقارب

ناشدوا المعرّي أن يسأل السيد عزيز الدولة وتاج الملّة بأن يعفي أولاد أخيه من هذهِ الضريبة على هذهِ الأريضة[9]. وهذا ما أشار إليه المعرّي في الصفحات الأولى من الرسالة بقوله: « لي –أطال اللهُ بقاء السيد عزيز الدولة وتاج المِلّةِ أميرِ الأُمراء- أولاد أخٍ قد أوذَموا على أنفسهم من خِدمتي ما ليس بلازمٍ...ولهم أوالبُ في مدينةِ ((حَمَاةَ)) ورَفَعَ رافعٌ إلى الحضرة العاليةِ، أنّ حقّاً يجبُ للخزانة المعمورةِ على أرض أولئك الدُّرْدِ النهابل، وسألوني، المسألةُ حُرمَةً، أنْ ((أسأل السيد عزيز الدولة وتاج المِلّةِ أميرِ الأُمراء)) فاستحييتُ... »[10]

إلى هنا تبدو القضية واضحة في سبب تأليف الرسالة، لكنَّ المعرّي عندما قدَّم السبب الذي من أجله كَتَب الرسالة، أخذَ يفصّل في طبيعة تلك الأرض، ووصفها بأنَّها أرضٌ هزيلة لا تُنبت زرعاً، حتّى أنَّ الحيوان الذي يكدح فيها يودُّ لو أنه يحمل أثقال اللئام، ويسافرمن المشرق إلى المغرب، على أنْ يعمل في هذهِ الأرض البائسة[11].

ويستطرد المعرّي في الكلام على هذهِ البهيمة، التي تكدح في هذهِ الأرض، ممهداً السبيل لإنطاقها باستخدام « بعض الآيات القرآنية شواهد، يمهد بها لإنطاق الحيوان في قصته »[12]، فيقول: « فجائز أنْ تضمر هذهِ البهيمة أو تقول باللسان ما لا يفهمُه كلُّ إنسانٍ ... ولا يمتنع في قدرة الله، أَنْ يَرِدَ فارسُ كُمَيتٍ أو وَرْدٍ، فإذا شَرَعَ في نمير ذي بَرْدٍ، ربطه بالكثب من المَثَاب* فيقول الشّاحج، بفضلِ الحسّ من أين طرأ علينا الكريمُ؟ »[13].

وبهذا التمهيد، يفتتح المعرّي الكلام على لسان الحيوان، وتبدأ قصة طويلة على لسان حيوانات مختلفة أرادها المعرّي أنْ تكون شخوصَ قصته هذهِ، لكنَّ دور البطولة أُنيطَ بالصّاهل والشّاحج، وبهما سُميت الرسالة.

إنَّ السبب الظاهر لتأليف الرسالة، هو قصة الأرض التي من أجلها كُتبت، ومن ثَمَّ تحولت الشكوى من الإنسان إلى شكوى الحيوان، الذي أنطقه المعرّي لطرح مظلمته إلى (الحضرة العالية).

قد يكون السبب الأول - قصة الأرض- في الغاية من كتابة الرسالة مقنعاً لمتلقّي النص، لكنْ لا يمكننا تسويغ السبب الثاني الذي طرحه المعرّي - أي شكوى الحيوان - الذي تقوم عليه أحداث الرسالة سببًا مقنعاً لقارئ الرسالة.

ومنه فإننا نرى أنَّ هناك أسباباً باطنة جعلت المعرّي يُنطق الحيوان، والقارئ لمضمون الرسالة يجد أنّ المعرّي يحمل همّا اجتماعياً وسياسياً عن تلك المدّة الزمنية، يفسره الاضطراب السياسي، وفساد المجتمع في عصر أبي العلاء المعرّي.

ولأجل ذلك فالرسالة وجهها أبو العلاء إلى عزيز الدولة فاتك الرومي والي حلب من قبل الفاطميين، لا على سبيل التطوع والإهداء كما وهم بعض الباحثين، على حدِّ تعبير "بنت

الشاطئ"، ولا على وجه التزلف والتقية والمداراة، كما ذهب "طه حسين"، بل أملاها لأسباب أخرى أهمها:

هو أنّ للمعري أولاد أخ، يملكون أرضا قاحلة لا تنبت إلا ضعيف الزرع، وقد رفع الجُباة إلى العزيز أنّ عليها مالا، ينبغي أن يؤدوه إلى بيت المال، فسألوا المعرِّي بما له من حرمة، أن يسال عزيز الدولة في ذلك، فاستحى أن يردهم خائبين، وصرَّح المعرِّي في ديباجة الرسالة، يخاطب "السيد عزيز الدولة وتاج المِلّة أمير الأمراء، أعزّ الله نصره"، بأنه تحرّج من مكاتبته في هذا الموضوع الهيّن، وسأل بني أخيه أن يعفوه من تجشُّم عناء الحَرج، لكنهم مازالوا به حتى استجاب لهم، وفاءً بما يجب لهم عليه من حقِّ القربى والرحم، واستحيا من تفانيهم في خدمته ورعايته[14].

وتبيّن بعد التّمعن في الرسالة أن المعرِّي قد استوفى غايته المقصودة، بناءً على السبب الذي ذكره في إنشاء الجزء الأول من الرسالة، لكن لا يمكن أن نستسيغ ذلك سببا لبقية الرسالة، وهو ما شكّل لُبَّها وصميمها ومعظمها، بعد أن استوفى غايته الأولى التي أعلنها أولا، فلم تكن هذه الإشارة تغني سبب التأليف وموقف المعرِّي.

ولـ"إبراهيم السامرائي" رأي في ذلك حيث يقول: « ولكني أقول ليس رفع (المظلمة) إلى عزيز الدولة سببا في إملاء هذه الرسالة، وذلك لأنّ أبا العلاء حشر هذه (المظلمة) في أول رسالته مستجيبا لأبناء أخيه وإلحافهم الشديد، ثم انصرف إلى مادته، وهي أشياء ذات خطر عظيم، وهي الغرض من هذه الرسالة، فعرض للأحداث وللمخاطر التي تتهدد البلاد والرعية من أمر حملات الروم، وما تركت من آثار سيئة، وما كان من عبث أولي الأمر في داخل البلاد وتقصيرهم، ومن أجل ذلك بدا أمر (رفع المظلمة) في فاتحة الرسالة شيئاً ذي قيمة، حشره المعرِّي، وكان غير مُوفق في إدراجه - جملة اعتراضية - ليس له مكان أو فائدة على نحو الجمل الاعتراضية في أساليب المنشئين »[15].

ويبدو أن هناك سبباً آخر على قدر من الأهمية، يتعلق بمعرفة تاريخ كتابة هذه الرسالة، والظروف السياسية، وما يمكن أن يقدمه هذا المحتوى من صور للنازحين، فضلا عما ذكره مؤرخو تلك الحقبة من أخبار، وتفصيل، لما شهدت هذه الإمارة من أحداث مريرة، كما أشار إلى ذلك "ابن العديم" في كتابه "زبدة الحلب من تاريخ حلب"[16].

ويمكن أن نضيف سبباً ثالثا لتأليف الرسالة، يدخل في باب التحدي والتعجيز والتهكم والسخرية، بكل من يَدّعي اقتدارا في العلوم الأدبية واللغوية، ومعرفة بالعَروض بوجه خاص، لاسيما أنّ العامة تناقلت أنّ السيد عزيز الدولة والي حلب أوتي حِسًّا نقديا وبصرًا ثاقبا، بأوزان

الشعر ومعانيه، كما أوتي معرفة جلية بمسائل اللّغة العويصة، حتى أنه جلس ينظر في دواوين الأشعار، فاجتمع حوله الشعراء من كل حدب وصوب.

كما تناقل أهل حلب في الحين ذاته ما يجري في بلاط العزيز من عبث الغلمان، ومن دسائس ومكايد وهذيان السكارى في مجالس اللهو، والبلاد في محنة لما يتوقع من غزو الروم، والنّاس مشتتون بين الجفلة والعودة إلى ديارهم، التي جلوا عنها فرارا من العدو، في ارتباك وفوضة، فالغزو يعني مذابح ومجازر، وهتك للأعراض، وانتهاك للحرمات، وانتهاب للأموال، وتخريب للديار.

وكأنّ المعرِّي في رسالته يريد أن يظهر بمظهر الهازئ المتهكم، بمن ينشغل بالعروض عن الفروض، وبالشِّعر عن حماية الحدود وسد الثغور، فحرص أنْ يُلْفِت انتباه الشعراء والفقهاء في الحضرة العالية إلى نوع من الألفاظ اللغوية الصعبة، وأنْ يكدَّ ذهنهم بتراكيب لا يمكن أن يمرُّوا عليها بسرعة ويسر، فصاغها بأسلوب الإلغاز والتورية، وهو الضليع باللّغة، العالم بشواردِها وغريبها، ليثبت أنه وحده الأستاذ اللغوي القادر على كبح جماح اللّغة، المالك لأوابدها، العارف بفكِّ شفراتها العصيّة[17].

وهناك سببان آخران ذكرهما أمجد الطرابلسي، - لم أجدهما عند غيره - وهما[18]:

السبب الأول: متمثل في أنّ أبا العلاء مزال يرغب في الاتصال بعزيز الدولة، منذ أن أرسل إليه رسالة يستقدمه إلى حلب، لكن المعرِّي لزم محبسه، فوجد في هذه الرسالة فرصةً لذلك، ليبلغه اعتذاره.

السبب الثاني: متمثل في أنّ أبا العلاء له جزء من هذا الملك (الأرض)، الذي يطلب إسقاط حق الخزانة عليه لصالح أولاد أخيه.

وليس في كتب القدامى عن سبب تصنيف الصّاهل والشّاحج، سوى إشارة سريعة لـ"ابن العديم" في كتابه "الإنصاف والتّحري"، أثناء حديثه عن مصنفات المعرِّي، فيقول: « وكتاب يعرف بالصّاهل والشّاحج يتكلم فيه على لسان فرس وبغل، وهو كتابٌ حسنٌ، صنعه للأمير عزيز الدولة "أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي"، مولى "منجوتكين العزيزي"، وكان "أبو شجاع" هذا والي حلب من قبل المصريين، في أيام "الحاكم" وبعض أيام "الظاهر"، وكان سبب تصنيفه أنه رُفع إلى "فاتك" أنَّ حقاً يجب على بعض أقرباء أبي العلاء، وجب على أبي العلاء سؤاله فيه مقداره أربعون كراساً »[19].

ومن خلال ما سبق يمكن أنْ نُدرج أسباب تأليف الرسالة في سببين رئيسيين، سبب ظاهر، وأسباب باطنه:

أمّا **السبب الظاهر** فهو رفع المظلمة على أبناء أخيه؛ بسبب الأرض القاحلة، التي وجب عليها حق لخزانة الدولة، فهؤلاء الأقارب ناشدوا المعرِّي أن يسأل السيد عزيز الدولة وتاج الملّة بأن يعفي أولاد أخيه من هذهِ الضريبة على هذهِ الأرض، فكتب هذه الرسالة مستجيباً لذوي رَحِمه.

أمّا **الأسباب الباطنه** فتتمثل في أمرين:

الأمر الأول: حَمْلُ المعرِّي لهمِّ الأمّة سياسياً واجتماعيًا، أما سياسياً فالمعرِّي لا ترضيه أعمال الساسة المخزية آنذاك، من لهوٍ وخيانةٍ، وقعود عن الجهاد، والدفاع عن الحدود، وسد الثغور، والبلاد تتكالب عليها الأعداء، بين الفينة والفينة، أما اجتماعياً، فقد أراد المعرِّي أن يُلفت أُولي الأمر إلى ما تعانيه العامة - خاصة الفئة الهشّة - من ظُلم وجور، وتسلّط بعضهم على بعض، لغياب العدل المنشود والمفقود.

الأمر الثاني: إبراز مقدرته اللّغوية والعَروضية، وموسوعته الفكرية في المجالات المتعددة، وهذا من باب التحدّي - من جهة - لمن يدّعي معرفةً باللّغة وأسرارِها، والعَروض وأحوالِها، ومن جهة أخرى فالمعرِّي يودُّ أنْ يَبُثَّ فوائد ومعلومات يستفيد منها المتلّقي، خاصةً طلاّب العِلم، وقد تجلّى ذلك في مواضع عدّة من الرسالة، وإنْ اعترتها بعض الغموض، وهذا ليس بغريب عن المعرِّي، فهو لا يُقدّم دروسه بالمجان، وإنّما الثمن إعمال الفكر، وكدِّ الأذهان.

ثانياً: زمن كتابة الرسالة

تكاد المصادر التي أشارت إلى الرسالة تتفق على أنّها أُلفت إلى "عزيز الدولة فاتك الرومي"، والي الفاطميين على حلب، ففي "زبدة الحلب من تاريخ حلب" لـ"ابن العديم"، أنَّ "الحاكم بأمر الله الفاطمي" « خلع على الأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك في جمادى الأولى سنة 407 هـ، وحمّله على عدّة من الخيل بسروجٍ محلاّة بذهب مصفّحة وقلّده سيفا ومَنْطَقَه بمنطقه وسيَّره إلى حلب ... وكان عزيز الدولة هذا، غلاماً أرمنيًّا لبنجوكتين مولى العزيز صاحب مصر، وكان بنجوكتين شديد الشَّغفِ به، وكان أديبًا عاقلا كريما كبير الهمّة، فولّاه الحاكم حلب وأعمالها، ولقّبه أمير الأمراء عزيز الدولة وتاج الملّة، ودخل حلب يوم الأحد الثاني من شهر رمضان من سنة 407 هـ وكان مُحبًا للأدب والشِّعر صنّف له أبو العلاء رسالة "الصّاهل والشّاحج" وكتاب "القائف" »[20].

وبالرجوع إلى الوثائق التاريخية نجد أنَّ "عزيز الدولة" قد تولّى حكم حلب في سنة 407 هـ، إلى مقتله سنة 413 هـ، ومن ثَمَّ نرى أنَّ مجال تأليف الرسالة يدور في فلك سبع سنين[21]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى أنَّ القسم الثاني من الرسالة يتحدث عن جفلة أهل حلب من غزوٍ محتملٍ للروم على مدينتهم، والمصادر التاريخية تتفق على أن هذهِ الجفلة، إنما كانت سنة 411 هـ، بما أصبح يعرف بجفلة عزيز الدولة[22].

الملاحظ أنَّ المدَّة الزمنية لكتابة الرسالة، تتقاسمها جهتان: الأولى تركت المجال الزمني واسعاً لسبع سنين، وهذا ما أكدته المصادر الأدبية والتاريخية التي أشارت إلى الرسالة، وهذا المقدار الزمني الواسع يقوم على التقدير والتقريب، والأخرى ضيّقت المجال السابق، وجعلته يدور في ثلاث سنين، وهذا المجال يحتاج إلى تدقيق مستفيض.

وبالرجوع إلى متن الرسالة الذي يعيننا بالإشارة في تحديد تاريخ كتابتها، وعند تأمل دقيق لِما بين السطور، نجد المعرّي يقول: « إنَّ السيد عزيز الدولة – أعزَّ اللهُ نصرَه – قد راسل أميرَ المؤمنين - الظاهرَ لإعزازِ دينِ اللهِ - »[23]، وهذا النّصُّ يؤكد أنّ الرسالة كُتبت في عهد الظاهر، والمصادر التاريخية تشير إلى أن عهده بدأ بعد مقتل أبيه الحاكم بأمر الله سنة 411 هـ، وأن المصادر نفسها ذهبت إلى أنّ "عزيز الدولة فاتك الرومي" قُتل سنة 413 هـ[24]، فالرسالة تكون كتبت في أواخر سنة 411 هـ، وبداية سنة 412 هـ، هذهِ المدّة تعدُّ أكثر قُرباً إذا ما استقرأنا المصادر التاريخية جيداً، فضلاً عن نص الصّاهل والشّاحج آنف الذكر[25]، أي المدَّة الزمنية التي تظاهرت فيها الخلافة الفاطمية بمصر بالرضا عن "عزيز الدولة" في حلب.

وهذا ما أكدّه "ابن العديم" من أنَّ عزيز الدولة « تغيّر عليه الحاكم الفاطمي، فعصى عليه، وضرب الدينار والدرهم باسمه بحلب، ودعا لنفسه على المنبر، فأرسل الحاكم إلى الجيوش وأمرها أن تتجهز إليه في سنة إحدى عشرة وأربعمائة، فلما بلغ عزيز الدولة ذلك، أرسل إلى بسيل ملك الروم يستدعيه ليسلم إليه حلب، فخرج بسيل الملك، فلمَّا بلغ موضعاً يُعرف بمرجع الديباج*** بلغ عزيز الدولة وفاة الحاكم، فأرسل إلى بسيل يعلمه أنه قد انتقض ما كان بينهما من الشرط، وأنه إنْ ظهر كان هو وبنو كلاب حرباً له فعدل بسيل إلى منازكرد****، فأخذها من الخزر، وكان الناس قد أجفلوا من ملك الروم إلى حلب، فكانت هذهِ الجفلة تسمى جفلة عزيز الدولة، لأنها بسببه »[26].

وفي خضم هذه الظروف المضطربة، التبس الأمر على النّاس، فهم لا يعرفون فيها حقيقة أمر ملك الروم، ولا يعرفون ما هي صورة العلاقة بين عزيز الدولة (والي حلب)، والظاهر لإعزاز دين الله الذي تولَّى أمر الخلافة الفاطمية بمصر، بعد مقتل الحاكم بأمر الله، فالعامة تريبهم نوايا الساسة وأطماعهم ومؤامراتهم، سواء من كان منهم بالعاصمة الفاطمية (القاهرة)، أو بقصر الوالي (بحلب)، فالسواد الأعظم من النّاس قلقون متوجسون بسبب عدم استقرار أحوال حلب الداخلية والخارجية في تلك الحقبة المائجة، يسودهم الذعر حول غزو مرتقب، بعد أن راجت بينهم الإشاعات والأراجيف والأقاويل، مما يشبه في مصطلحنا الحديث (حرب الإعلام ونشر الدعاية).

في هذه الظروف الصاخبة التي نزحت فيها آلاف العوائل من القرى والقصبات والمدن المتاخمة على حدود الروم، من شائعة غزو رومي متوقع، كُتِبت رسالة الصّاهل والشّاحج، أي في أواخر سنة 411 هـ، وهي السنة التي نرجّحها في بحثنا، حسب ما تمَّ عرضه.

ثالثاً: بنية الرسالة وأهم مواضيعها

الرسالة نمط فني فريد من إبداعات أبي العلاء، صاغها على ألسنة البهائم التي اختارها، ورسم لكل منها الدور الذي تؤديه، والحوار الذي تشارك به في العرض، كما أنّها تشخيص فني لعالم الإنسان في منطق الحيوان، وصورة حيَّة لأحوال حلب في تلك الأزمة، تشمل المجتمع وطبقاته، وما يدور بين أبنائه من أنباء وإشاعات، وتنقل من ذلك لأذن السلطان ما من شأنه أن يُحجب عنه، كما تُقدِّم صُورا لما يحدث في قصور السلاطين وحاشيتهم، مما يظّن أصحابها أنها لا تصل إلى أوساط الشعب.

والرسالة أيضا تعرضُ للعلاقات الخارجية، مما يعدُّ من قبيل السياسة العليا، وتقدّم في ذلك الأسرار والتفسيرات، يتخلل ذلك كله آراء من القضايا الاجتماعية، والنصائح السياسية والمشورات الدبلوماسية، من خلال منطق واعٍ، ومعرفة ثاقبة شاملة، وموقف وطني نبيل.

فمتلقي النَّص يجد عند قراءة الرسالة، أنَّ هذهِ الأحداث المدونة في كتب التاريخ، هي نفسها التي يتحدث عنها المعرِّي في رسالته، وزاد على تلك المصادر، أنّه أمعن – كعادته - بالوصف والتحليل المستفيض لأدق الأحداث[27].

ويمكن تقسيم الرسالة إلى ثلاث بُنى رئيسة:

أولاً: تقديم صورة كاملة لأحوال مجتمع حلب في تلك الفترة، وما يحدث في قصور السلاطين والأمراء والعلاقات الخارجية بين والي حلب وبسيل ملك الروم، وخاصة الذعر السائد على أبناء حلب، جرّاء انتشار خبر نية غزو ملك الروم لحلب، تتخلل ذلك النصائح السياسية والمشورات الدبلوماسية.

ثانياً: يتمثل في الثقافة الأدبية واللغوية المبثوثة في الرسالة، من أشعارٍ وأمثالٍ، وقضايا نحوية، وأخرى عروضية.

ثالثاً: يتمثل في لون من الدعابة والمرح، التي يقدمها أبو العلاء، من خلال سخريته وتهكمه وأحاجيه، وألغازه الأدبية واللغوية[28].

من ناحية أخرى يمكن التمييز بين قسمين رئيسيين:

القسم الأول: ديباجة تحية واعتذار إلى والي حلب، الذي يخاطبه أبو العلاء ((السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء أبي شجاع فاتك))، وتقديم شكوى لأبناء الأخ.

القسم الثانى: المشاهد الخمسة المتمثلة في الحوار بين الصّاهل والشّاحج والفاختة والبعير والثعلب، على النحو التالى:

المشهد الأول: يدخل فيه الفرس "الصّاهل" في طريقه من مصر إلى حلب على الشّاحج "البغل"، ويهنئه الشّاحج ويبادره بالحوار بقدرة الله، ثم يطلب منه الشّاحج أن يرفع له شكوى منظومة إلى والي حلب، ويحاول أن يصادقه، ولكن الصّاهل يأنف من مصادقة الشّاحج ويسخر منه، ومن دعوى نظمه الشِّعر، ويختلفان، عندها يقترح الصّاهل حَكمًا، لفضِّ الخلاف، واختار الفاختة "الحمامة"، التي رفضها الشّاحج، لأنها معروفة بالكذب، ويقترح أبا أيوب "البعير" بدلاً منها.

المشهد الثانى: تسمع الفاختة كلامهما، وتدخل في القصة، بعد أن ترف بطرف عينها للصّاهل، والشاحج لا يرى ذلك لأنه معصوب العينين، وتطير بعدها إلى البعير، وتعكس كلام الشّاحج وتؤلبه عليه ، لتفسد ما بينهما من علاقة وموّدة، فيهاجم أبو أيوب الموغر الصدر على الشّاحج لينتقم منه، دون تثبّت، وبعد أن يتبيّن له كذب الفاختة يعتذر إليه، فيطلب الشّاحج منه أن يحمل رسالة نثرية له إلى الحضرة العالية بحلب، حافلة بالألغاز والتورية، ولكن أبا أيوب لا يفهم هذه الألغاز، ويسخر من الشّاحج فييأس منه الشّاحج، ومن حمله للرسالة.

المشهد الثالث: يجيء الثعلب ويدخل عليهم، وبينما هو يتكلم مع الشّاحج، يسمعان ضجّة في حلب، يطلب منه الشّاحج أن يتجول في حلب، ويأتي له بالأخبار، وفي هذه الجولات الإخبارية، يتحدث الثعلب عن كثير من أخبار القصر التي كانت تتناقله العامة، مثل: جفلة الناس من عزم ملك الروم لغزو حلب، وعلاقات المودّة الخفية بين عزيز الدولة والي حلب وباسيل ملك الروم، وكذا الصفقات والمؤامرات السياسية بين عزيز الدولة والي حلب وملك الروم من جهة، والظاهر بأمر الله الخليفة الفاطمي من جهة أخرى.

المشهد الرابع: الثعلب يتحدث عن أنباء حلب وأهلها، ويصف أحوال الجالية، وما تعانيه من شظفٍ في العيش، وما تقاسيه من مشاقٍ بسبب انعدام المأوى، وقلّة الزاد، فأخذ الثعلب يصف حال الفئات المستضعفة من حالة المرأة وصراخ طفلها الصغير، وأنين الشيخ الكبير، كما لم يغفل عن تصوير الأقليات من اليهود والنصارى، وغيرها من طوائف المجتمع المختلفة، أصحاب المهن من حرفيين وتجّار....

المشهد الخامس: الثعلب يغيب شهرين، ويأتي إلى الشّاحج محمَّلا بأخبار الجالين عن حلب في العودة إلى ديارهم، ويتحدث عن أخبار العدو واستعداده للغزو.

هذه المشاهد الخمسة هي أهم المحطّات الكبرى التي دار فيها الحوار بين الشخصية البطلة "الشّاحج"، وباقي الشخصيات الحيوانية الأخرى، التي أدّت كلّ واحدة منها دورًا مُهمًّا في بنية

الرسالة، وقد أغفلنا دور أمّ عامر "الضبع" التي كانت محطّ سخرية من قبل الشّاحج لحمقها، ولأنّ إطلالتها كانت سريعة وخاطفة ضمن المشاهد.

وقد تناولت الرسالة عدّة مواضيع، يمكن إيجازها فيما يلي:

- السياسة، وإدارة الدولة.
- المفاوضات السياسة الحربية.
- الحياة الاجتماعية بجميع طبقاتها.
- الحياة العلمية بجميع علومها وفنونها، من فقه وتاريخ وجغرافيا وأدب ولغة وعروض وقافية، ولقد استشهد المعرّي على هذه العلوم بما يصح عند أهلها، من القرآن والحديث، والشعر، والمثل والوقائع التاريخية والجغرافية، وقصص وأخبار الأمم.

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكن القول إنّ رسالة الصّاهل والشّاحج عمل أخّاذ آسر، بما حوته من ثروة لغوية، وأمثال وقصص وأشعار، في صياغة بيانية فريدة، على لسان الحيوان، فجاءت الرسالة لتُأَرشِف تاريخ من لا تاريخ لهم من البسطاء والمهمشين من النّاس، وأصحاب الحرف الشّعبية، في زمن عزّ فيه الأمن والأمان.

فالمؤرخون غالبا يسجلون تاريخ الحكّام والعظماء والمشهورين، وتكون للسلطة يد فاعلة في التدوين، أمّا أديب المعرّة، فلم يغفل عن الطبقة الهشّة من المجتمع، وغاص في القيعان وسلّط الضوء على التفاصيل الجزئية لعامة النّاس، في هذه الفترة الزمانية الحرجة من تاريخ مصر والشّام.

وما نرجّحه في الأخير أنَّ للأوضاع السياسية آنذاك، وطبيعة الشّخصية المعرّية، المحبوسة جسدا، الحرّة الطليقة فِكرًا، المتوجسة من سطوةِ الحُكّام، المدفوعة بالضمير الحيّ النابض، الحامل لهموم الأمّة، دورا في جعل المعرّي يُخرج عملا على هذه الشاكلة، منافياً التقاليد السائدة لعصره في فن كتابة الرسائل، حيث اسْتَأْثَر عالمَ الحيوانِ، ليُفرِغَ مَا في جُعْبَتِه مِنْ لُغَةٍ وإبداعٍ وأفانين للحوارِ، ساخرًا من السلطة الحاكمة، وبذلك بلغ مبتغاه وهو في منفاه.

وإذ أقدر قيمة الرسالة، من حيث هي وثيقة هامة، لفترة زمانية محددة، برواية شاهد من عصرها، رصد ما يُعرف في هذا التاريخ بجفلة عزيز الدولة، استوفى أخبارها وأعطى تفسيرها، أقدِّر كذلك ما فيها من مجال رحبٍ للبحوث النقدية والدراسات المقارنة، كما أنّها أرض خصبة للبحوث اللغوية والعَروضية، وما هذا المقال إلا لفتة لمن يريد الولوج إلى عالم المعرّي الثرّ من خلال رسالة الصّاهل والشّاحج.

قائمة المصادر والمراجع

1. علي عبد الإمام مهلهل الأسدي: صورة نازحي حلب في رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعرِّي، مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، ع81، 2017م.
2. أبو العلاء المعرِّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، تح: عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، ط02، 1984م.
3. صالح بن رمضان: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، دار الفارابي ، بيروت لبنان ،ط02، 2007م.
4. صلاح رزق: نثر أبي العلاء دراسة فنية، دار غريب، القاهرة، مصر، د ط، 2006م.
5. طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، 1963م.
6. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، دط، 1977م، مج02.
7. ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1996م.
8. علي عبد الإمام مهلهل الأسدي: صورة نازحي حلب في رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعرِّي.
9. أمجد الطرابلسي: رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعرِّي، مجلة مجمع اللّغة العربية، دمشق، مج49، ج02، نيسان 1974م.
10. ابن العديم: الإنصاف والتحري ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء، إشراف: طه حسين، تح: مصطفى السَّقَّا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م.
11. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، 2012م، ج09. وينظر: ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص(122 - 124)، وينظر: محمد بن علي العظيمي الحلبي، تاريخ حلب، تح: إبراهيم زعرور، دمشق، د ط، 1984م، ص(322، 323).
12. ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص 124. وينظر: أبو العلاء المعرِّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص(415 - 420).
13. جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: جمال الدين الشيال، وفهيم محمد شلنوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1972م، ج04، ص176 وما بعدها.

هوامش البحث

[1]- ينظر: علي عبد الإمام مهلهل الأسدي: صورة نازحي حلب في رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعرِّي، مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، ع81، 2017م، ص135.

[2]- ينظر: أبو العلاء المعرِّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، تح: عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، ط02، 1984م، ص(219، 220)، وص350. أثناء طلبه من البعير حمله الرسالة بأسلوب التورية، كما في كتاب: الملاحن لـ"ابن دريد"، وكتاب: فتيا فقيه العرب لـ"ابن فارس الرازي".

[3]- صالح بن رمضان: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، دار الفارابي ، بيروت لبنان ،ط02، 2007م، ص498.

[4]- ينظر: أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص(420، 692). إذ يقوم الثعلب بنقل أحداث حلب – للشاحج المعصوب العينين بمعرة النعمان – عن غزو متوقع للمدينة من قبل الروم بقيادة ملكهم (باسيل)، وهذه الأحداث في الرسالة تصور جفلة الناس من هذا الغزو، حتى باتت تعرف هذهِ الجفلة بجفلة عزيز الدولة؛ لأنها حدثت في عهده كونه كان أميرًا على حلب للفاطميين.

[5] - صلاح رزق: نثر أبي العلاء دراسة فنية، دار غريب، القاهرة، مصر، د ط، 2006م، ص159.

[6] - ينظر: أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص21.

[7]- طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، 1963م، ص288.

[8] - صلاح رزق: نثر أبي العلاء دراسة فنية، ص 150.

[*] - حمّاة: المدينة المشهورة بالشام، على نهر العاصي، وظبطها ياقوت الحموي، في معجم بلدانه، بلفظ حماة المرأة، وهي أم زوجها، لا لغة فيه غير هذه. ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، دط، 1977م، مج02، ص300.

[9] - ينظر: أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص(84، 85).

[10]- أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص(84، 85). أوذموا على أنفسهم: نذروا، أوجبوا، الأوالب: جمع والبة: وهي في الأصل فراخ الزرع، والمراد في النص: الأقارب. الدرد: جمع أدرد وهو من لا أسنان له. النهابل: جمع نهبل، وهو الشيخ المسن.

[11]- ينظر: أبو العلاء المعرّي: المصدر نفسه، ص90.

[12]- صالح بن رمضان: الرسائل الأدبية ودورها في تطور النثر العربي القديم، ص446، وينظر: أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص91.

[**] - المثاب: مقام المستقى، على فم البئر.

[13] - أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص(91، 92).

[14] - ينظر: أبو العلاء المعرّي: المصدر نفسه، ص(84، 85).

[15] - ينظر: إبراهيم السامرائي: مع المعرّي اللغوي، ص102.

[16]- ينظر: ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1996م، ص124.

[17] - ينظر: علي عبد الإمام مهلهل الأسدي: صورة نازحي حلب في رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعرّي، ص138.

[18]- ينظر: أمجد الطرابلسي: رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعرّي، مجلة مجمع اللّغة العربية، دمشق، مج49، ج02، نيسان 1974م، ص10، وص12.

[19] - ابن العديم: الإنصاف والتحري ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء، إشراف: طه حسين، تح: مصطفى السَّقَّا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الابياري وحامد عبد المجيد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م، ص(531، 532).

[20]- ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص123.

[21]- ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، 2012م، ج09، ص314. وينظر: ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص(122 - 124)، وينظر: محمد بن علي العظيمي الحلبي، تاريخ حلب، تح: إبراهيم زعرور، دمشق، د ط، 1984م، ص(322، 323).

[22]- ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص 124. وينظر: أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص(415 - 420).

[23]- أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص553.

[24]- الحاكم بأمر الله الفاطمي (375 هـ - 411 هـ): هو أَبو علي منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز العبيدي، ثالث خلفاء مصر مِنَ الفاطميين، تولّى الخلافة سنة 386 هـ، وهو صبّي عمره 11. ينظر: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: جمال الدين الشيال، وفهيم محمد شلنوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، 1972م، ج04، ص176 وما بعدها.

أما الظاهر لإعزاز دين الله (395 هـ - 427 هـ): فهو علي بن الحاكم الفاطمي ولد بالقاهرة، وُلِيَ الخلافة بعد والده الحاكم، وهو رابع خلفاء مصر مِنَ الفاطميين. ينظر: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي: المرجع نفسه، ج04، ص247 وما بعدها.

أما عزيز الدولة أبي شجاع فاتك الرومي، فهو والي حلب للفاطميين في أيام الحاكم، وبعض أيام الظاهر للسنوات (407 هـ - 413 هـ). ينظر: ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص(122 - 124).

[25]- أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج، ص27.

[***] مرجع الديباج: وادٍ عجيب المنظر نزهٌ بين الجبال بينه وبين المصيصة عشرة أميال. ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، دط، 1977م، مج05، ص101.

[****] منازكرد، أو منازجرد: بلاد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يعدُّ في أرمينية وأهله أرمن وروم، وتذكر أحيانا ملازجرد، أو ملازكرد. ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج05، ص115.

[26]- ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص124.

[27]- ينظر: أبو العلاء المعرّي: رسالة الصّاهل والشّاحج (مقدمة التحقيق)، ص(9 - 31)، وينظر: صلاح رزق: نثر أبي العلاء دراسة فنية، ص(151، 152).

[28]- ينظر: صلاح رزق: نثر أبي العلاء دراسة فنية، ص153.